الفصل السادس

القصص المقدسة التي تربط النساء العراقيات الشيعيات عبر الزمان والمكان

طيبة حسن الخليفة شريف

في آذار/ مارس 1991، فرّ آلاف من الشيعة العراقيين من بيوتهم إلى الخطوط التي تحتلها القوات الأمريكية في جنوب العراق بعد التخلي عن متمردي الانتفاضة الشيعية، فنقلوا إلى مخيم سعودي للاّجئين في الصحراء غير بعيد عن الحدود العراقية. وطيلة عام 1993 تم توطين مجموعات صغيرة من هؤلاء اللاجئين في هولندة. وبعد ذلك بثلاثة أعوام تعرفت على كثيرين منهم. فقررت أن أجعل حياة خمسين من نسائهم موضوعاً لأطروحتي للدكتوراه.

وكانت أهم مقابلاتي هي التي سجلتها مع النساء الأكبر سنّاً، وخاصة مع فاطمة، وحبيبة، ونبيلة، وأمينة، وجميلة، وأم أحمد، وأم فارس وسليمى الملاّية (أي الزعيمة الدينية). وفي بادئ الأمر خشيت النساء أن يخبرنني بتاريخ حياتهن الشخصية، وفضلن اللجوء إلى الأسلوب القصصي القرآني وإلى الشعر. ولكن بعد استقرارهن في بيئتهن الجديدة وارتياحهن إليّ، عادت إليهن الثقة باستخدام الأطر التقليدية لسردهن القصصي.

لقد فقدت هؤلاء الشيعيات العراقيات أسرهن، وتاريخهن، وثقافتهن. غير أن أحد الجوانب الجوهرية لهويتهن ظل موجوداً، بل وتعمق فعلاً في عملية اللجوء: وهو الفن التقليدي للتداخل بين القصص الشخصي والديني. وقبل كل شيء، فإن قصص هؤلاء النساء تتعلق بطقوس الحداد المرعية منذ زمن قديم. فهذه الطقوس تتحول إلى خيط يربط بين المشاركات في ذكرى التواريخ المقدسة والرموز الشيعية، وهي طقوس

تعمل بوصفها وسيلة للترابط، وإحياء الذكرى، والعلاج. فهي تنشئ شبكة في الشتات تبرز منها شخصيات نسائية فاعلة لمن يعملن بصفتهن وصيات على الأمل في وجه حالات هي عند كثير من النساء حالات رعب يعجز عنه الوصف، وصدمات لا تطاق.

ويستكشف هذا الفصل أحد الطقوس المخصصة للنساء تحديداً، ويسمى مجلس القراءة. وهو تجمع للحداد واستذكار آل البيت (بيت النبي). وتشمل الطقوس النساء والأطفال وتتم في البيوت. حيث تجري قراءة مراثي التفجع للبكاء والحداد. والهدف من هذه المراثي الشعرية هو وصف آلام آل البيت وتقاسم الشعور بها بتذكر كفاحهم لإعادة حكم العدل إلى أمتهم الإسلامية[1]. وتقدم القصص والأشعار رؤية معمقة للطريقة التي يقيم بها الشيعة من المجتمعات المختلفة روابط أفقية فيما بينهم وعمودية عبر الزمن مع ينابيع دينهم[2].

ومنذ القرن السابع الميلادي يؤدي الشيعة طقوس المجالس هذه، وبذلك ينشئون علاقات مع أجيالهم السابقة (الحيدري 1999). وعندما تأتي اللاجئات موضوع هذه الدراسة إلى المجلس لتذكر آلام آل البيت ومعاناتهم، فإنهن يجلبن معهن الصدمات الفردية والجماعية من حربين ومن القمع السياسي، وهي صدمات ليس من المفروض التعبير عنها علناً، وهي أحداث مختلفة، منها ما هو شخصي جداً ـ مثل التعذيب، والاغتصاب، ومشاهدة تعذيب الأحبة الأعزاء وموتهم ـ ومنها ما هو جماعي كصدمة تتشارك في الشعور بها نساء مجتمعات مضطهدة بكاملها، بينما تتشارك نساء أخريات في صدمات الأحداث بالاستماع إلى قصص تسردها نساء أخريات، في المجلس على الأغلب.

إن النساء اللواتي قابلتهن كن من ضحايا الاضطهاد في العراق منذ سبعينيات القرن العشرين، ملتمسات لجوء في المملكة العربية السعودية ومغتربات من اللاجئين الذين استوطنوا في هولندة. والصدمات المتراكمة التي تعرضهن لها زاد من شدتها شعورهن بأنهن كن أيضاً ضحايا خيانة تسيطر عليهن كالهاجس منذ لحظة سحق صدام حسين لانتفاضة عام 1991 وتخلي أمريكة عنهن. وقد تبعت ذلك خيانات أخرى من أمريكة وحلفائها في حرب الخليج عندما تلقى اللاجئون العراقيون

openkanz.com

وعداً بإيوائهم في الولايات المتحدة على الفور عندما عبروا إلى المناطق العراقية التي وقعت تحت سيطرة القوات الأمريكية. وبدلاً من ذلك فقد أرسلوا إلى مخيم رفحة السعودي للاّجئين في الصحراء. وقيل لهم: إنه سيكون «ملجأ مؤقتاً» ولكنهم أمضوا فيه ثلاثة أعوام (1991 - 1993) كما أن هذه الصدمات المتفاقمة قد زاد من حدتها شعور النساء بالذنب تجاه تخليهن عن أفراد أسرهن عندما اخترن الهرب من العراق. وإحساسهن بأنهن متواطئات (ولو بطريقة سلبية) في تحطيم ما بقي من عوائلهن وأقاربهن عند توطينهن في أماكن أخرى بعيداً عنهم. وهن يعتقدن أن إظهار إخلاصهن المتفاني في المجلس قد يحول آلامهن إلى شيء جيد، وهو الشعور الديني الجماعي بالتواصل والانتماء وإحياء الذكريات. ولكي تؤدي الطقوس وظيفتها الدينية يتعين على النساء أن يتفاعلن مع تاريخهن، وأن يتذكرنه ويعشن فيه ثانيةً، وأن يظهرن تعاطفهن بالبكاء.

وفي هذه المقالة أتفحص استخدام النساء للرموز الدينية والقصص المقدسة للتغلب على آلامهن الخاصة، ومخاوفهن، وشعورهن بالضياع والتعرض للخيانة، والانهيار العاطفي. ومنذ القرن السابع الميلادي، كانت النساء الشيعيات يستخدمن السرد القصصي في المجلس في الوسط المألوف لأقاربهن المباشرين، فيمزجن بين قصصهن الذاتية والقصص القديمة. وإن اهتمامي بالصدق الموضوعي لقصصهن أقل من اهتمامي بالمعاني التي يعطينها للأحداث التي مرت بهن في تجاربهن. فكيف تتفتح القصة وتنتشر؟ وكيف تتحدث الرواية عن شخوصها؟ وما هي اللغة التي تستخدمها؟ وهل تسير القصة في خط مستقيم أم في دائرة؟ وما هي أهمية حالات التوقف فيها؟ وما الدور الذي يؤديه السرد القصصي في إدامة الثقافة العراقية في هولندة وفي إعطاء معلومات عن هوية جماعية؟

إنني أجادل بأن سرد القصص المقدسة يساعد على شفاء الجراح النفسية والعاطفية الناجمة عن الحروب وعن المنافي. فالنساء يجدن عزاء وراحة في البكاء الجماعي في أثناء طقوس سرد قصص القرن السابع الميلادي عن حالات الخيانة والموت التي تعرض لها آل بيت النبيّ. وبذلك فإن النساء المجتمعات في المجلس يفرّجن

عن آلامهن عن طريق تذكر آلام الآخرين. وما يثير اهتمامي هو كيفية قيام النساء اللواتي التقيت بهن بربط تاريخ الشيعة بواقعهن الحالي في هولندة.

القصص الشيعية والإطار الديني

إن أحد الفروق المهمة بين المجتمعات الشيعية والسنية ينعكس بأكبر قدر من الوضوح في مواقفهم من العلاقة بين «الرجل» و«الكتاب». فعند السنة أن القرآن هو دليل وبرهان على ذاته بفضل إعجازه. وهكذا ففي الإسلام السني فإن «الكتاب» مقدم على «الرجل» (شوبل 1993، ص15). أما عند الشيعة، فإن البرهنة على تنوع القرآن موكولة إلى النبيّ. ومن هنا فإن لآل البيت مكانة مركزية في إيمان الشيعة وتقواهم. كما أن التأكيد على الولاء الفردي والجماعي للنبيّ له آثار وعواقب مهمة في تفكير الشيعة، وممارساتهم وطقوسهم.

والتشيع يأخذ اسمه من كلمة «شيعة» التي معناها التشيع لعلي ومؤازرته. وعلي هو ابن عم النبي محمد ﷺ وصهره. ويعتقد الشيعة أن الله ومحمداً قد عينا علياً أول خليفة ذي حق في سلطة النبي السياسية والروحية. ومن جهة أخرى فإن السنة يعتقدون أن علياً هو الخليفة الشرعي الرابع في الإسلام بعد الخلفاء الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان، وأنهم جميعاً يشكلون مرحلة حكم الخلفاء الراشدين. ويغضب الشيعة من رفض المجتمع الإسلامي السني حق علي وحده في وراثة الخلافة. فهم يرون أن الإمامة الإسلامية أكثر من قيادة سياسية، فهي منصب ذو سلطة إعجازية، صوفية، روحية دينية متعلقة بالخلاص. ويقوم اعتقادهم هذا على تفسيرهم للآية القرآنية رقم 124 من سورة البقرة التي يعد الله فيها إبراهيم وذريته بجعلهم أئمة. وحسب التاريخ الديني فإن محمداً وابن عمه علياً هما من نسل النبي إبراهيم عن طريق ولده إسماعيل. ومحمد هو الأخير في نسل الأنبياء ...[1].

ومثل الأنبياء، فإن علياً والأئمة ـ كما يعتقد الشيعة ـ هم معصومون وقادرون على قيادة المجتمع؛ لأن لديهم علماً سرياً خفياً من النبي (هوفمان ـ لاد 1992، ص626). وبالنسبة للشيعة، فإن النبي وآله أكثر من مجرد بشر. فهم الحكمة النبوية متجسدة،

وهم النور النبوي في العالم. وهكذا فإن إنكار حق علي في الخلافة يشكل خيانة تنطوي على تدنيس للمقدسات الدينية.

إن حب آل البيت يقبله الشيعة والسنة على حد سواء، فهو يوحدهم. ويعبر معظم الشيعة عن حبهم لآل النبي بزيارة قبورهم والعناية بها. وبنظم قصائد المدح لهم وإقامة الاحتفالات، وتقديم الصدقات باسمهم. وما يميز الشيعة هو أنهم يقيمون طقوس حداد تستخدم منبراً للتعبير عن حبهم لآل البيت. كما أن سيرة حياة كل واحد من آل البيت والحوادث التي جرت فيها تشكل مصادر مهمة **لمجلس القراءة**.

وأهمية تاريخ آل البيت بالنسبة للشيعة منعكسة في التقويم الطقوسي، الذي يحتوي على أكثر من ثمانٍ وأربعين مناسبة احتفال بمولد أو وفاة تخص النبي، والأئمة الاثني عشر، ونساء آل البيت ـ والسيدة فاطمة على وجه الخصوص. فهي ابنة النبي، وهي مصدر الأئمة، وأم السيدة زينب، حفيدة النبي وأخت الحسن والحسين. وكل واحدة من هذه المناسبات السنوية تعطي الشيعة فرصة لتأكيد ولائهم عن طريق أعمال التقوى والإخلاص العاطفية. إذ إن تفانيهم في حب آل البيت يبتّ في غفران ذنوبهم. ويقال: إن هذا الإخلاص لآل البيت والأمل في الخلاص عن طريق هذا الحب، هو الذي يميز المذهب الشيعي عن المذهب السني على مستوى التقوى الشعبية (ص628).

ويتم الاتصال الشخصي بآل البيت في أثناء طقوس الحداد وإحياء الذكرى. ويمكن مشاهدة هذا الاتصال بأكبر أشكاله جلاء وبروزاً للعيان في أثناء التذكر العام العلني والحداد على استشهاد الإمام الثالث: الحسين. ويتم إحياء الذكرى في العاشر من شهر محرم أول أشهر التقويم الإسلامي. فطقوس الذكرى والحداد على الحسين شديدة تبلغ ذروتها في العاشر من محرم، يوم استشهاده في واقعة كربلاء في عام 680م (61هـ)[4]. وكربلاء، المدينة العراقية في الجنوب، بالقرب من نهر الفرات هي موطن النساء اللواتي أجريت معهن المقابلات من أجل هذه الدراسة.

وبالرغم من أن واقعة كربلاء كانت صغيرة بالنسبة لعدد القوات والضحايا، فإن تأثيرها على التشيع صاعق ومذهل (ريتشارد 1995، ص29). فهي تمثل عند الشيعة جميعاً الصراع النموذجي الأصلي بين الظالم والمظلوم. فاستشهاد الحسين شعار

رمزي لكل جهاد من أجل العدل. وهذا الاعتقاد يفسر سبب قول كل امرأة قوبلت من أجل هذه الدراسة: «التاريخ يعيد نفسه. فنحن ظلمنا صدام كما ظلم يزيد حسيناً»[5] وهن يستحضرن في أشعارهن الحسين ويزيد للإشارة إلى آلامهن الذاتية والقمع الذي تعرضن له.

ففي عام 680م (61هـ) توسل أهل الكوفة بالحسين؛ كي يأتي إلى العراق ليقودهم في الثورة على الطاغية يزيد. والكوفة مدينة أخرى في جنوب العراق وهي موطن كثير من النساء اللواتي اشتركن في المقابلات التي أجريت من أجل هذه الدراسة. فغادر الحسين وموكبه الصغير المدينة متوجهاً إلى جنوب العراق. ولكنهم قبل وصول الكوفة أوقفهم جيش يزيد. ولم يأتِ المدد من الكوفة، فاستشهد الحسين في كربلاء ومعه كل أهل بيته تقريباً. وذعر أهل الكوفة من يزيد بحيث لم يجرؤوا على الثورة ضده. وبعبارة أخرى فإن الناس الذين جاء الحسين لإنقاذهم كانوا هم الذين خانوه. ويشرح إبراهيم الحيدري آثار استشهاد الحسين على شيعة العراق : «ليست هناك أرض أغرقتها الدماء كأرض كربلاء، ولا أمة أحزنها الحداد على بطلها كحداد الشيعة العراقيين على الحسين. وإلى حد ما فقد صار الحزن والحداد على الحسين جزءاً من شخصية الشيعي العراقي ونفسيته الذاتية» (1999، ص35).

وتبقى مجزرة كربلاء حية في مجالس القراءة. وعلى خلاف طقوس شهر محرم، التي تقتصر على أيامه العشرة الأولى فقط وتعرف بمجالس العزاء الحسينية، فإن مجالس القراءة تستمر طيلة أيام السنة، وفيها حداد على كل أفراد أسرة النبي، وليس على الحسين فقط. وتنطوي الطقوس والذكريات دائماً على البكاء، وهو عادة ينتقدها السنة. وبالنسبة للشيعة، فإن البكاء على آل البيت، وخصوصاً الحسين ليس شيئاً مشروعاً فحسب، بل هو مجلبة للخلاص كذلك. والعجز عن البكاء قد يثبت أن المرء ضائع روحياً. وقد طلب الإمام السادس، جعفر الصادق من الشيعة أن ينظموا الشعر في الحسين وثورته لإبقاء ذكرى الحسين حية.

الشفاء عند المزارات

إن النساء اللواتي قابلتهن يعتقدن أن كل مسلم محب حقيقي لآل البيت ينبغي عليه أن يقوم بزيارة العتبات المقدسة من أجلهم، ولا سيما في النجف[6] وكربلاء، والكاظمية[7]، وسامراء[8]، مرة واحدة في العمر على الأقل. ويحظى «الزوار» بمكانة دينية واجتماعية خاصة بعدِّهم محبين حقيقيين لآل بيت النبي. وقد حصلت معظم النساء اللواتي قابلتهن على لقب «زائرة»، وبعضهن لأنهن كن يعشن في أماكن بعيدة، ومع ذلك قمن بزيارة العتبات المقدسة، وأخريات لأنهن يعشن في المدن المقدسة ويحظين على الدوام ببركة زيارة العتبات المذكورة.

وكثيراً ما كن يزرن العتبات في أثناء الأوقات الصعبة مثل حربي الخليج الأولى والثانية. أما النساء اللواتي لم يستطعن الزيارة فقد أرسلن رسائل شكاوى، وطلبات، وتوسل إلى الأئمة. وكانت تلك الرسائل تتضمن طلبات للحصول على السلام، والصحة، والحماية، وعودة أحبائهن سالمين. وذكرت لي كثيرات منهن أن ضريح الإمام علي في النجف كان مليئاً بمئات من مثل هذه الرسائل الملصقة في طبقات على نوافذ الضريح وأبوابه. ولعلها هي الوسائل الوحيدة التي كانت متاحة لكاتبيها للتعبير عن معاناتهم والتخفيف منها. وكانت النساء اللواتي قابلتهن يعانين كثيراً من القلق والضغوط الاجتماعية. وكانت لزيارتهن وصلواتهن ودعائهن في العتبات المقدسة وظيفة نفسية بالإضافة إلى وظائفها الدينية؛ لأن هذه الزيارات ساعدتهن على الشعور بالسلام والراحة، والقدرة على احتمال القلق. وأوضحت أمينة كيف كانت تربط خيطاً أخضر بنافذة الضريح. وعند استجابة الله لدعائها كانت تفي بنذرها وترمي نقوداً أو ذهباً من خلال النافذة وتعطي صدقات لسدنة المزار، أو توزع أموالاً على الفقراء باسم الإمام. وزعمت جميلة أن الأئمة يشفون المرضى.

وذكرت جميلة أن النظام البعثي قد منع طقوس الحداد والذكريات الشيعية في عام 1977. وأغلق رجال الشرطة البوابة الكبيرة المؤدية إلى ضريحي الحسين والعباس، ووقفوا إلى جانب البوابة المغلقة ببنادقهم لمنع الناس من دخول المزار. فكان الناس يقفون بجانب البوابة يطلقون الدعوات والأناشيد. وفجأة رأت هي وغيرها من

المحتشدين البوابة تنفتح من تلقاء نفسها !!! وخاف رجال الشرطة فهربوا، ودخل الشيعة مبتهجين. وذكرت فاطمة أن الحكومة عندما منعت إقامة طقوس الذكرى، فقد منعت الحجاج من القدوم إلى العتبات المقدسة، ولكن دون جدوى.

وأذكر ذات مرة بعد مرسوم المنع هذا في عام 1988 أن رجلاً غنيّاً من منطقتنا جاء بعدة حافلات في منتصف الليل، ودعا الناس إلى ركوبها مجاناً إلى كربلاء. وفي الثالثة صباحاً توجهنا بالحافلات إلى منطقة معاميل. ومن هناك ذهبنا مشياً على الأقدام إلى كربلاء؛ كي نصل إلى العتبات المقدسة ونزور الإمام الحسين، والعباس، وقاسماً. وبعد ذلك عدنا لقضاء الليلة في خيمة! كنا مجموعة من الفتيات، وكنا نضحك، ونبكي، ونتحدث! فبقينا في الخيمة حتى ظهر اليوم المقبل، عندما قيل لنا: إنه ستكون هناك «مسيرة» في ذكرى الحسين. وقد شارك في هذه الطقوس حتى الأطفال الذين لم تزد أعمارهم عن أربع سنوات، وكانوا جميعاً يرتدون ملابس خضراء. وكان الناس ينشدون للعباس في أثناء المسيرة، ولكن لم ينشدوا لزينب أبداً. فقد كنا نعتقد أن العباس سوف يصبح عصبياً إذا ذُكرت زينب، وحدث في أثناء الهرولة الأصعب في المسيرة أن ذكرها بعض الناس. وكنت منهمكة في غسل وجهي عندما رأيت دخاناً من أعلى ضريح العباس! فذهلنا، وخاف الناس. ثم أمرونا بألا نذكر زينب ثانيةً! وعندما بدأت بالمسير، أغمي عليّ تقريباً. فلقيني رجل أعطانا شراباً حلواً كالحليب. وعندما شربته شعرت بالانتعاش ومشيت مدة ثلاث ساعات، وكنت مستعدة للمزيد. وكان هناك رجل عجوز على حصان يقود القافلة، وكنا نردد الأناشيد بعده، فقد كان ينشد شعراً ونحن نرد عليه. وكان الحزب الشيوعي في منطقتنا قوياً بين الشيعة، ولم تكن الأحزاب الإسلامية كذلك. وبالرغم من أن الشيوعيين كانوا ملاحدة، فقد كانوا يمارسون الطقوس الشيعية. فكانوا ينظمون الجنازات ويؤدون القراءات عن الحسين. وكانوا يؤمنون بذلك، فقد كان ذلك هو المجتمع الذي دخلوا فيه، ولم يكونوا قادرين على تغيير ممارساته!

إن مثل هذا السرد القصصي يشهد على مركزية الذكريات الجماعية في الثقافة الشيعية. وبالرغم من أن الحكومة كانت قد عملت على منع هذه التجمعات، فإن الجماعة الشيعية ظلت صامدة وباقية.

مكان الذكريات

إن السرد القصصي عن الشجاعة والتضحية اللتين بدرتا من الأبطال والبطلات في كربلاء يطلق عليه **خطاب كربلاء**. فالقصص المعجزة تساعد على شفاء الآلام والصدمات. فبينما تحاول النساء إعادة بناء حياتهن في هولندة، يحضرن مجالس القراءة؛ ليجعلنها جزءاً من أحاديثهن اليومية، وبذلك يخدمن دينهن وينفّسن عن آلامهن الشخصية.

وفيما يأتي سأصف مجلساً عن السيدة زينب؛ وهي بطلة كربلاء التي أبقت ذكرى آل البيت حية عندما قالت ليزيد: «واللّه إنك لن تاخذ منا ذاكرتنا» (شمس الدين 1985، ص218). وقد قالت لي إحدى النساء: إنه لولا زينب لتعرض تاريخ آل البيت للنسيان منذ زمن طويل، فهي الناطقة باسم آل البيت وحاميتهم، فقد كانت فيها روح التحدي بالرغم من أنها بلا حول ولا قوة، فأنقذت الإسلام، وأبقت ذكرى آل البيت حية. ويعزو الشيعة إليها فضل عقد أول مجلس للحداد على الحسين عندما كانت أسيرة في دمشق. وكان الأهم من ذلك هو إنقاذها علياً، الابن الوحيد للحسين الذي بقي بعد كربلاء. فقد ضمنت بقاء ابن أخيها، ومن ثمّ بقاء سلالة الأئمة.

وتعقد مجالس القراءة[9] في البيوت الخصوصية، حيث يحضرها جمهور من المدعوات يتراوح حجمه من دزينة من النساء إلى مئة امرأة، ولكن المعدل الوسطي يضم نحو خمسين. وتعمل «الملاّية» رئيسة للمجلس. والملاّية[10] كلمة باللهجة العامية العراقية، وهي المؤنث من كلمة الملاّ (ومعناها الشيخ) والملاّيات هن في العادة نساء محليات تلقين تدريباً تقليدياً. ولا يسمح إلا للنساء بحضور مجالس القراءة، ويجب ألا يكون هناك رجال على مدى السمع. وتكون مضيفة المجلس شديدة الوعي بنطاق الخيارات المفتوحة أمامها لانتقاء الملاّية، وأنواع الأداء التي تشرف عليها، ونوع الضيافة التي يتعين تقديمها، والجوّ المحيط الذي يجب توفيره.

والخطوة الأولى في العملية هي تهيئة الموقع. أما الأداء الذي سأروي قصته فقد حدث في بيت إحدى النساء اللواتي قابلتهن، وقد تصادف أنها كانت ملاّية. فقد وصلت في الساعة الثالثة من بعد ظهر 17 أيلول/ سبتمبر عام 1999 لحضور مجلس

قراءة عن السيدة زينب ينعقد في السابعة مساء. وقد جئت مبكرة من أجل المراقبة والمساعدة في تهيئة البيت؛ لأن المشاركة في التحضير هي جزء من التقوى. وكانت امرأتان قد وصلتا قبلي للمساعدة في الطبخ وإبعاد الأثاث من غرف الجلوس. وبذلك فرغت الغرفة إلا من سجادة فارسية كبيرة ملونة وبضع صور معلقة على الجدار. وكانت هناك ثلاث صور في غرفة جلوس الملاّية، إحداها للإمام الأول علي، والثانية للإمام الثالث الحسين. أما الثالثة فكانت لوحة جدارية لأشجار النخيل التي ترمز إلى الفضل الإلهي، وهي أيقونات حنين إلى الموطن العراقي. إن معظم بيوت النساء العراقيات في هولندة تعلق فيها هذه الصور على الجدار. وبعضها فيه آيات قرآنية أيضاً، أو شيء من أقوال الأئمة منقوشة بالخط العربي. والهدف من هذه المناظر المرئية هو تذكير النساء بوطنهن، وتاريخهن، ودينهن.

وتقدم هذه المناظر نافذة تطل على الطقوس. ويوضح آلان رادلي أن الناس المطرودين من أوطانهم بالقوة يوجدون شكلاً خاصاً من التذكر يطلق عليه اسم «الحزن». فالأشياء قد تصلح بعض الخلل الذي عانى منه الفرد في حياته، وتستحضر له ذكريات، حتى وهي منغرسة في العالم المادي. والتحف الفنية تحافظ على الذكرى وتشكل رواية التاريخ (1990، ص50، 51، 57). وهكذا فإن صور الأئمة وأشجار النخيل تمثل ماضي العراقيات، وحاضرهن، ومستقبلهن. فتقدم محيطاً يتم خلاله سرد قصصهن الذاتية.

وعند الساعة السادسة والنصف، كانت معظم النساء قد وصلن. وحان وقت صلاة المغرب. وقبل الصلاة قدمن لي تربة، وهي قرص صغير ناعم مدور. ولصنع التربة يتم تجفيف قطع من الطين من كربلاء، وصقلها بأشكال مربعة، أو مستطيلة، أو بيضوية؛ وتوضع على سجادات الصلاة، بحيث يضع المصلي جبهته عند السجود على القرص بدلاً من الأرض. وكان لدى كل امرأة قرص من هذه التربة، التي «طهرها دم الحسين في كربلاء»، كما قالت لي المرأة الجالسة إلى جانبي، «ولذلك فإن تقاليدنا تقضي باستعمالها لصلواتنا؛ لأنها تمثل الأرض التي استشهد عليها الحسين من أجلنا» وهذا القرص الذي يمثل الخطوة الأولى في طقوس الذكرى يعمل مدخلاً لتاريخ كربلاء

وآل البيت. وهكذا فإن الأفراد يتذكرون تاريخهم الشيعي المحدد الفريد من نوعه خمس مرات في اليوم عندما يصلون ويستعملون قرص التربة.

وبما أن الذكرى هي لبّ الإيمان الشيعي، فإن تجميع مثل هذه الأشياء له أهمية خاصة. ولهذا السبب فإن التحف الفنية في المكان لها أهمية في الطقوس الشيعية تعادل أهمية النصوص المقدسة التي يرتلونها. فهي تقيم علاقة تربطهم بالماضي وتساعد على صيانة الهوية (ص47 - 48). وهكذا فمع وجود التربة، والصور المعروفة على الجدار وروائح الطعام العراقي المثيرة للحنين في الجوّ، بدأنا جميعاً صلاة المغرب معاً.

طقوس ذكرى زينب والحداد عليها

إن الهدف من القصص التي تنشر في هذا المجلس هو الاستلهام من حياة نساء آل البيت اللواتي ضربن أمثلة في البطولة. ولذا فإن النساء المشاركات في الطقوس يستجمعن القوة من السير الذاتية للأئمة الاثني عشر، الذين عانوا من الاضطهاد والاستشهاد، ومن الشيعة الذين واجهوا في القرون اللاحقة من الاضطهاد مصائر مماثلة بصمود ظاهر ورباطة جأش، بل وبحماس. وهذه القصص تخلط ما هو خيالي بما هو تاريخي. فالأحداث المروية ليست تاريخية فقط، بل إنها تعبر إلى ما وراء التاريخ، لتصبح في محتواها وسردها نماذج كبرى خارجة عن الزمان والمكان وموازية لهما مع ذلك.

سأركز هنا على القصص الشعرية «المركبة» عن السيدة زينب. ففي هذا الحفل فإن إعادة رواية القصة لا تبدأ إلا بعد إجراء التحضيرات البصرية والروحية للجزء العاطفي من الطقوس. كانت النساء يرتدين ملابس سوداء. وقد جلسن على الأرض في أربعة صفوف على شكل مربع يواجهن فيه بعضهن بعضاً، وظهورهن إلى الجدران. وعندما اكتمل المربع الأول، بدأت النساء اللواتي جئن متأخرات بتشكيل مربع ثانٍ. وقد جلس الأطفال الذين تصل أعمارهن إلى ثلاث سنوات بجوار أمهاتهم أو في أحضانهن(11). وجلس الأطفال الأكبر عمراً معاً، مشكلين مربعاً آخر. وتبادلت النساء الحديث بهدوء.

وبدأت الحفلة عند دخول الملاّية الغرفة. فأخذت مكاناً عند الطرف الأقصى من المربع الأخير، بحيث تستطيع النساء والأطفال أن يشاهدوا ما تفعل ويسمعوا ما تقول. وهكذا بدأ المجلس مع الجلسة الأولى. فبقيت النساء جالسات ينصتن إلى الملاّية ترتل بعض آيات من القرآن من أجل البركة. وعندما صلت على النبي وآله، ولا سيما زينب، رددت النساء معاً كلمة: «آمين». وبعد ذلك وجهت حديثاً إلى الإمام الحسين قائلة: «يا إمامي الحسين.. كثيراً ما كنت أزور قبرك وألمس الأرض التي ترقد فيها. وأنا الآن مشتاقة للعودة إليك. لقد مرت سنوات وأنا أفتقد بهجة الحضور في روضتك. لقد حاولت أن أزورك. ولكن سيف يزيد [صدام حسين] اللامع منعني، وعندما صارت زيارتك شديدة الصعوبة زرت سورية؛ لأستنشق رائحة تراب ضريح السيدة زينب. فأتاح لي وجودك عند السيدة زينب أن أتواصل معك. فأنت والسيدة زينب موجودان معنا بالروح بالرغم من بعدكما».

واعتذرت الملاّية عن عجزها عن القيام بزيارة قبر الحسين في كربلاء بسبب ممانعة صدام حسين، الذي سمته يزيد؛ لقيامها بتلك الزيارة. غير أنها لم تستطع مقاومة اشتياقها لآل البيت، فسافرت إلى سورية، التي هي واحدة من الأماكن التي يعتقد أن السيدة زينب مدفونة فيها. وقد كانت زينب مقربة جداً من أخيها الحسين، وهكذا استطاعت الملاّية عن طريقها أن تستعيد تبريكات الحسين. وتابعت الملاّية قائلة: إنها تشعر بحضور الحسين وزينب معها في هولندة. ثم تلت صلوات ودعوات بركة للسيدة زينب، ثم روت قصة دور السيدة زينب في أحداث كربلاء التاريخية. كان الحسين يعرف أنه سوف يستشهد. وكان ذلك سبب اصطحابه لنساء آل بيته معه، فقد كان يريد من السيدة زينب أن تتابع رسالته بعد موته. فنجت من المعركة وأصبحت حامية آل البيت. وعندما أخذت أسيرة إلى الكوفة خاطبت واليها دفاعاً عن أخيها وأسرته. ثم أخذت إلى يزيد في بلاطه بدمشق. فتكلمت مرة أخرى دفاعاً عن أخواتها وأنقذت ابن أخيها من القتل. وبالرغم من أنها كانت عزلاء في مواجهة الخليفة، فإن قوتها قد أدت الرسالة.

ثم وجهت الملاّية دعاء خاصاً للسيدة زينب باسم جميع النساء المجتمعات في المجلس: فليساعدنا الله على الالتقاء بك في مكانك العالي من الفردوس. يا سيدتنا

زينب العظيمة، وألوف الصلوات والسلام عليك». ثم وقفت الملاّية، وأخذت تتلو مرثاة من وجهة نظر السيدة زينب عندما رأت استشهاد أخيها. وبدأت الإنشاد بصوت غريب فيه رجفة متعمدة تشبه صوت العود. وهكذا تحركت أوتار الرثاء متدفقة من موضوع إلى آخر.

كانت النساء الشيعيات يستخدمن القصص الشعرية علاجاً منذ أيام زينب. وليست رواياتهن على شكل شهادة، ولكنها تأخذ شكل التفجع بالأشعار لآلام آل البيت التي تستطيع الشيعيات أن يجسدنها عاطفياً. فهن يمزجن شعر القرنين السادس والسابع الميلاديين بالأشعار التي يكتبنها بأنفسهن عن آل البيت. وعندما وصفت الملاّية سليمى مشاعرها في مخيم رفحة للاجئين انزلقت إلى وصف حزنها عندما سمعت بوفاة السيد أبي القاسم الخوئي، سليل بيت النبي !!! وزعيم الجماعة الشيعية. فأنشدت قصيدة طويلة وضعت في آخرها نفسها في مكان ذلك العالم الراحل:

أتمنى لو أن جسدي قد رقد

في التراب قبله

وألا تكون عيناي قد رأتا ذلك الصباح

لقد تحطم قلبي المحب بسبب فراقه

وكانت كل النساء سيضحين بأنفسهن من أجله

لو كان ذلك ممكناً.

وكثيراً ما كانت تفاجئني الأشعار العفوية التي تتلوها النساء في مدد الصمت في أثناء رواياتهن لقصصهن. ودون مقدمة ولا توضيح، كانت كل قصيدة جواباً لسؤال. فعند وصف لحظة رهيبة كانت لغة القصيدة تصبح غنائية. ولم يكن استخدام الأسلوب الغنائي عن عمد عند هؤلاء النساء، بل كانت نتيجة شعورهن العميق بإيقاع القوافي الموزونة. فالشعر في السرد القصصي يضمن الحفاظ على الروايات عن طريق أساليب تقوية الذاكرة بالوزن والقافية. كما أن المجاز يخدم الذاكرة. وكلما كانت الصور أقوى، طال بقاء القصة في الذاكرة الفردية – ومن ثَمّ في الذاكرة الجماعية. وعندما سألت

سليمى عن شعورها حول منع النظام البعثي لحفلات الحداد قالت:

يمنعنا الطاغية من السير في طريقكم

ويا للأسف، فهو لا يقبل أي حفلات حداد!

فهو يقول: «أنا الحاكم

وأريد أن أدمرهم وأستريح

فلماذا لا تنهض يا علي،

وتضع نهاية لهذا؟»

وعندما سألت حبيبة عن سبب مجيئها إلى هولندة، أجابت:

سنسأل لماذا أُخِذت زينب رهينة

سوف يزول بنو أمية إلى الأبد

وسوف يشهد كل واحد في العالم ما نصنع.

ففي هذا المقطع الذي رددته حبيبة، كانت فيه هي زينب، وكان أهل النظام البعثي هم الأمويون. وعندما استذكرت حبيبة يوم القصف الأمريكي للعراق في 17 كانون الثاني / يناير، عام 1991، والانفجارات في البصرة، اقتبست الآية الأولى من سورة الزلزلة (99: 1): ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. إن المفردات التي تستخدمها النساء قوية شديدة. فحتى عندما يصفن الحوادث اليومية يستخدمن كلمات مثل «التدمير» و«الاضطهاد» و«الفشل»، و«القتل»، و«الانهيار». وعندما تصف إحداهن طعاماً مراً بشكل خاص، فإنها قد تصرح بأنه «آذى» فمها. فقد اشتكت طفلة في الرابعة من عمرها بأن أمها «هربت» من الغرفة، وفعل الهرب يستخدم عادة لوصف النفي الإجباري للاّجئ. وكانت كل واحدة من النساء تستخدم بانتظام كلمات مثل «العدل» و«الظلم» و«الابتزاز» و«عدم الإنصاف» و«الجور» و«القمع» و«الكارثة» و«الألم».

فالمجلس مجال لمعالجة جماعية مكثفة تتيح للنساء أن يهربن من بيوتهن وواقعهن للمشاركة في عمليات إحياء الذكرى المرتبة بعناية. حيث يكون بوسعهن الاستماع

ورواية تاريخهن في أثناء تأديتهن لواجبهن الديني. وبذلك يتبادلن الراحة الناجمة عن الأحاديث التي تعقب البكاء.

وتتميز أشعار المجلس ببساطة تعابيرها وتكرارها. وتتباين المراثي المتفجعة تبايناً كبيراً في طولها، وتركيبها ومحتواها. وتتناول مطالع القصائد عملية استحضار وترنيمة حول وحدانية الله وقوته. وتلي ذلك مقدمة قصيرة لقصة السيدة زينب. وتنتهي القصيدة بالمنشدة، وهي تتحدث وكأنها هي السيدة زينب، ثم تطلب من المستمعات تلاوة سورة الفاتحة. وتستحضر طقوس التفجع علاقة القرابة الفردية مبتدئة بعبارات مثل «يا أخي» و«يا أمي». ففي البيت الأول من المرثاة الأولى تنادي السيدة زينب أخاها «يا ابن أمي»... وتتمنى الموت كي تكون معه:

آه يا ابن أمي،

لقد هجرتني روحي

ولكن ما فائدة روحي دونك

فألمك هو ألمي

يا حسيناه، يا حسيناه!

وبعد كل مقطع من قصيدة الرثاء، تنضم النساء إلى الملاّية في ترديد الترجيعة «يا حسيناه، يا حسيناه!». وتستمر هذه الذكرى الطقوسية، حتى الوصول إلى الوقفة.

ثم ترخي النساء أوشحتهن، ويقفن ويشكلن دائرة حول الملاّية التي تنشد مرثية قوية بشكل خاص، بصوت قوي مليء بالحزن، تستحضر قوافيها الجنائزية ألماً عميقاً كأنه صدى الإيقاعات المرنمة في الجنازات الشيعية. وترتفع أصوات النساء وتزداد حدتها عندما يشاركن الملاّية في ترديد الترجيعة بشكل موحد متناغم: «يا حسيناه، يا حسيناه!».

والوقفة هي الذروة العاطفية، حيث تزداد شدة البكاء، وترتفع محبة النساء لآل البيت وذكراهم إلى أقصى درجاتها العاطفية. وتسمى هذه المرحلة **المأتم**؛ وهذا

اصطلاح يشير إلى أعمال التفجع على الموتى. ويترافق إنشاد المراثي مع صوت اللطم المنتظم، حيث تضرب المشاركات صدورهن بإيقاع موحد، فيصبح الصدر الإنساني آلة موسيقية، تملأ الغرفة بضرباتها الموزونة المطردة الثابتة. وبتحقيق هذه الحالة وتشجيع الأخريات على البكاء كذلك، تحقق كل امرأة خلاصها وخلاص الأخريات.

وعندما تلاحظ الملّاية أن النساء قد وصلن إلى ذروة الانفعال العاطفي، تلطم صدرها ووجهها بيديها لتجعلهن يبكين حتى يحققن وحدة حال من الوجد والأسى. ويستمر الإنشاد بينما تهتز النساء يمنةً ويسرةً بصورة موحدة تتابع الإيقاع باللطم على الصدور. وعند هذه النقطة ينخرطن جميعاً في البكاء[12]، بل إن بعضهن يشهقن بالبكاء في انفجارات مباغتة، «آه يا حسين، يا ضحية الطغيان!» أو «نتمنى لو كنا معك يا حسين!» أو «آه يا حسين!».

والمجلس نفسه هو إمرار للتاريخ والهوية في وجه العدو الذي دفع بهؤلاء النساء إلى المنفى، سواء أطلقن عليه اسم يزيد أم صدام. وفي قصيدة شعرية أخرى يرى المرء مرة أخرى التشابه بين رسالة زينب البطولية ورسالة النساء الشيعيات أنفسهن. ولم تكن قد أدركت بعد أن الله قد اختارها. وفي ذلك معنىً ضمني بأن الاختيار قد وقع على النساء الحاضرات أيضاً.

تنادي زينب:

من سيحمل رسالتي؟

من سيحفظ تراثي الماضي؟

يا حسيناه، يا حسيناه!

وعندما تقتنع الملّاية بأن النساء قد وصلن إلى قمة الألم والحزن، فإنها تنهي الوقفة بقيادتها للنساء في ترتيل لآيات من القرآن. ثم تجلس الملّاية والنساء في استراحة قصيرة، ولشرب الماء، ومسح دموعهن. وبعد رواية قصتين تاريخيتين أخريين: إحداهما من الشام والأخرى من كربلاء، تقف النساء وينصتن للملّاية تتلو

دعاء توسلياً شخصياً، وفي رسالة أمل لكل المشاركات تنهي المجلس بتوسل مباشر إلى الله طالبة منه العفو عن الذنوب وقبول المجلس، وتردد النساء معها هذا الدعاء.

وبالرغم من أن المجلس يكون عندئذ قد انتهى، فإنه يستمر بشكل آخر. وفي أثناء تقديم الشطائر، والمشروبات، والقهوة العربية، تستطيع النساء الحديث عن مشكلاتهن الخاصة بحضور الملاّية، فيتحدثن عن مشكلات أطفالهن في المدرسة، وعن الحياة في هولندة، وعن مشاعرهن الشخصية حول إعادة توطينهن. وقد أدلت فاطمة في المجلس بتصريح يعكس شعور نساء كثيرات في التجمع: «عندما كنت مريضة، لم أستطع أن ألوم أحداً على عدم زيارتي؛ لأنني كنت أعرف أن ظروفهن جميعاً تتحكم فيها أسرهن وبيوتهن. ولم أكن قادرة على الذهاب إلى أمريكة للانضمام إلى إخوتي، لأن زوجي وأطفالي هنا. وليست لدي خطط للعودة إلى العراق؛ لأن أطفالي [الذين ولدوا في هولندة] قد ترعرعوا هنا. فقلت للموظفة الاجتماعية: إنني محتاجة إلى الجنسية الهولندية ما دمت غير قادرة على العودة إلى العراق، وقد وعدتني بأن تفكر في ذلك».

وبعد مرحلة صمت، تابعت فاطمة تقول:

لو لم يكن ذهني محملاً ومشغولاً بأشياء كثيرة لتعلمت اللغة [الهولندية]. فإنني أفكر دائماً في مستقبل أطفالي في هولندة، وأطفالي الآخرين في العراق. إنني أحلم بهم دائماً وأرى الشرطة تطاردهم دائماً في منامي. وقبل يومين حلمت بأن ولدي في العراق قد أمسكت به أفعى، وكنت أصارع لتخليصه منها. إنني في الحقيقة لا أعرف ما الذي سيحدث لأطفالي لو كنت ميتة! ولا أستطيع أن أشرح كل مخاوفي وكوابيسي لصديقاتي؛ لأن لديهن مخاوفهن الخاصة، أكثر حتى من مخاوفي! إننا نجتمع لنتسلى، فلا أحد سيكون مستعداً لمعالجة هذه القصص التعيسة في العراق. وفي تجمعنا الأخير، بينما كنا نتسلى، تحدثت إحدى السيدات عن العراق، فرجوناها كلنا أن تتوقف؛ لأن ذلك سينكأ جراح آلامنا وحدادنا. وهكذا غيرت الموضوع!

وساد صمت طويل عقب حكاية المرأة التي تلقت اللوم؛ لأنها ذكرت قصصاً مؤلمة.

لقد مسّت قصة فاطمة قضايا عديدة تواجه اللاجئات الشيعيات وأسرهن في هولندة، بما في ذلك المصاعب الزوجية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية. ذلك أن قلقهن المستمر على سلامة أطفالهن في العراق وفي هولندة معاً، يضاعف شعورهن بالاغتراب. وبالرغم من أن فاطمة قد ذكرت السرور الذي تشعر به في صحبة صديقاتها، فإنها تتردد في تحميلهن أعباء آلامها. وإن قصتها تبين مدى أهمية الحديث في معالجة المشكلات والاضطرابات.

كانت قصة فاطمة تلخص ما عانت منه النساء الحاضرات، وبذلك يستطعن التواصل معه. إن توقع حدوث كارثة إن عاجلاً أم آجلاً هو جزء من الوعي الجماعي والهوية الجماعية للشيعة إلى درجة أن بعضهم يحددون السلام نفسه بوصفه شيئاً جارحاً أو مضراً. ومع ذلك فإن النساء يكافحن لإيجاد شعور بالاستقرار والأنس ضمن متاهة المشكلات الجديدة.

وقد أشركت سليمى مجموعة النساء في قصة لحظة مؤذية. وكانت قصتها تتعلق بعملية تجميع لمجلس، وكيف أن مجلساً في العراق أدى إلى تعذيبها.

كانت حفلة الحداد من المفروض أنها مقامة سرّا، ولكن إحدى الجارات جاءت بلا دعوة. ولا أدري من الذي فتح الباب لها. وفي صباح اليوم اللاحق، في الساعة الثامنة جاء ضابط شرطة إلى بيتي وأخذني إلى مكتبه. فأعادوني في السادسة مساء وألقوا بي على باب بيتي فاقدة الوعي. وقد صحوت في الحادية عشرة مساء. وفي أثناء استجوابي سألني ذلك الرجل عما كنا نفعل في الليلة السابقة، فقلت له: كان لدي بعض الضيفات. فأدار جهاز تسجيل، ولشدة ذهولي، كان عليه صوتي وأنا أتحدث في أثناء حفلة الحداد، بما في ذلك جميع القصص التي سردتها والأشعار التي أنشدتها. واشتد غضب الرجل الذي كان يقف ورائي في أثناء الاستجواب، فصب سائلاً بارداً على قدمي. فأدى ذلك السائل إلى قليها كأنها بيضة في زيت مغلي. فأغمي عليّ. وعندما أفقت وجدت أبي، وأمي، وإخوتي، وأخواتي جميعاً حول سريري بوجوه شاحبة. وعندما نظرت إلى قدمي وجدتها عارية من اللحم وبقيت فيها العظام وكان الألم يشبه الجحيم. كان قد صب عليها حامض الكبريت. وفي أثناء الاستجواب سألوني إن

كنت غير خائفة منهم عندما أقمت حفل عاشوراء؟ فقلت لهم: إنني لا أخاف إلا من الله. ولكنني كنت في الحقيقة خائفة منهم.

وقد أضفى الرعب في قصة سليمى بعداً آخر على التجمع. فالنساء بحاجة إلى التواصل مع زميلاتهن الشيعيات في جوّ المجلس المؤنس المألوف. وبالإضافة إلى ذلك فهن يستمددن الشجاعة من الحفلات نفسها. وعند هذه النقطة من الأمسية كان بإمكان النساء أن يناقشن الصعوبات التي يلقينها مع أزواجهن ومع العيش في هولندة بوجه عام. وكانت بعض النساء قد تحدثن مع الملاّية بالهاتف لطلب النصح منها قبل المجلس. وعندئذ صار بوسع الملاّية أن تشير إلى تلك المشكلات وتقدم نصيحتها، من أجل فائدة النساء اللواتي تحدثن إليها بالهاتف، وفائدة النساء الأخريات، اللواتي بإمكانهن المشاركة وتقديم النصح أيضاً. وبعد هذه الجلسة، جمعت النساء أشياءهن، وتعانقن، وعدن إلى بيوتهن. وقد أوضحت واحدة منهن: «لقد صار المجلس مكاننا السري لتقاسم الألم والمعاناة، ومناقشة المشكلات التي نواجهها في العراق، وهنا في المنفى» ولقد كان المجلس أيضاً هو أسلم مكان للتحدث عن الموضوعات المحرمة في ظل النظام الاستبدادي في العراق.

والملاّية هي مسهلة الأمور والزعيمة الدينية. ومن المهم جداً أن تتفهم الملاّية قصص النساء وتجاربهن تفهماً كاملاً، بالإضافة إلى رواية قصص حياتهن في جلسات الحوار التي تلي الطقوس. ويجب أن تكون أيضاً قادرة على إعادة جوهر تلك القصص، بحيث تستطيع استحضارها في حديثها بعد طقوس المجلس. فهي تمتص الطبيعة والإيقاعات النابعة من تجارب النساء واحتياجاتهن، وتوصلها إلى الأخريات في العرض الذي تقدمه. إنها عملية كاملة. فهي توصل محن المجموعة بالتفجع عليها بكلماتها الخاصة الموسيقية البارعة. ويجب أن تكون مراجعتها للرواية فاعلة؛ كي تجعل المجتمِعات ينصتن إليها. فالملاّية تعيد سرد تاريخ القصص المقدسة، وتعيد تركيبها، وتعيد العيش فيها[13]. وهي ـ عن طريق إعادة سرد الأحداث التاريخية ـ ترغم الشيعيات على تذكر تاريخهن. فتربطهن مع الأصول المشتركة. وبإعادة تركيب الأحداث التاريخية في صياغة شعرية، وتلاوة القصص المقدسة بطريقة تستثير العاطفة، فإنها تسهل الحزن والبكاء. وعندما تقدم أداء شديد الكثافة إلى درجة

فتح مغاليق العواطف المكبوتة فإنها تتيح للنساء التواصل مع أعمق مستويات وعيهن. كما أنها تجتذب المشاركات الأخريات إلى القصص باستخدامها البارع للتفاصيل الرمزية وطريقة عرضها الروائية.

وقد استذكرت سليمى كيف صارت ملاّية. ونستطيع أن نقرأ في قصتها كيف يتم تركيب شبكة من العقيدة الشيعية:

منذ الطفولة، كنت معتادة على جمع أسرتي والتحدث إليهم. ولم أكن أسمح لهم بالذهاب إلى الحمام إلاّ بعد الانتهاء من كلامي. وفيما بعد بدأت أراقب جدتي وهي تتحدث في المجالس. ورحت أحلم باليوم الذي سأصير فيه مثلها، وأخذت أقلد حركات يدها وتعابير وجهها. وكنت أحضر كل الحفلات منذ أن كنت في الخامسة عشرة، بالرغم من أنني تزوجت في مدينة أخرى غير مدينتي تماماً! وكانت عادتي أن أترك ابنتي مع جدتها. وحاول أهل زوجي أن يثبطوا عزيمتي، ولكنني أصررت. وفي أثناء حضوري تعودت على طلب الإذن بالتكلم أمام «الشيخ الأكبر». وبعد مدة بدأ الناس يطلبون مني أن أعقد لهم مجالس. وقد حدث ذلك أيضاً في رفحة وفي هولندة. إن تقليد التلاوة ورواية القصص جزء مهم من حياتنا، لأن له علاقات بقضيتنا في العراق. أما الآن فلسوء الحظ لم يعد الشباب يهتمون بهذا النوع من الفن، وهنا لم يعد لبناتي اهتمام بذلك، وأخشى أن هذا النوع من الفن والعمل الديني سوف يختفي من بيتنا بعد موتي! فأطفالنا الآن لا يستطيعون أن يشعروا بمعاناتنا وبقضيتنا في العراق، بل ينظرون إليها ببساطة على أنها تخلف. وأنا الآن أتلقى دعوات من نساء تجاوزن الخمسين من أعمارهن؛ كي أدربهن على التلاوة، بالرغم من أنه لم يكن لديهن اهتمام بهذا الفن عندما كنّ في العراق! وأنا أحفظ كثيراً من الخطب والأشعار والقصص. فأنا كتاب حيّ. إن الطريقة التي يروي بها المرء القصة قد تكون أهم من القصة نفسها! لقد صرت ملاّية وأنا في سن الخامسة عشرة. ولم يكن الحصول على هذا اللقب سهلاً فهو يتطلب

شجاعة، وبلاغة، ومعرفة تاريخية! والناس الآن يحاولون التعلم عن طريق الأشرطة المسجلة. وقد تعودت على الحفظ وحدي. وبعض الملايات يفضلن القيام بذلك في مجموعات. ولكن من أجل خدمة مقاصد الإمام الحسين، كنت أفضل أن أتدرب على المجالس وحدي، لأن الاشتراك في التلاوات مع أخريات وهن غير مستعدات من شأنه أن يعطيني الانطباع بأن جزائي من الله سيكون أقل، وسيكون منقوصاً!

إن الطقوس الشيعية تأخذ المشارك فيها إلى نقطة من المعاناة الشديدة لمساعدته على الارتباط ـ إما رمزياً أو روحياً ـ بالذين يجسدون جذر نماذج المذهب الشيعي (شوبل 1993، ص5). فالنساء يتذكرن تاريخهن الخاص عند استماعهن للملاّية. فهن يعدن لمعايشة ذلك التاريخ عندما ينشدن معها، فيأخذن مكانهن في الانتماء للتسلسل الكبير للتاريخ الشيعي. فترتفع النساء من عصرهن الزمني ومن آلامهن الخاصة. إن فكرة خاصية الخلاص الكامنة في الألم تتم ترجمتها إلى الحياة الحقيقية كتضحية مستمرة، واستشهاد عن طريق التشبه بالحسين، الذي اختار طريق الاستشهاد نيابة عن أسرته وعن إخوته المسلمين. فالنساء يتشبهن بالأسرة المقدسة وحالات كفاحها العظيم، وعندئذ فقد يستطعن أن يكشفن عن قصصهن الخاصة.

وتتقاسم المشاركات آلامهن معاً في جو حميم جداً. ذلك أن جلوسهن معاً بشكل متقارب أو وقوفهن بشكل متلاصق في دائرة يمكنهن من الاستجابة إلى لغة أجسادهن. وفي أثناء الإنشاد، تهتز النساء يمنة ويسرة، ويلطمن صدورهن وأفخاذهن مع إيقاع النشيد. كما أن الأناشيد التي تعززها الحركة والإشارات تمكن النساء من مطابقة آلامهن مع معاناة آل البيت. وعند الارتباط جسدياً، وعاطفياً، وروحياً مع قصص آل بيت النبي فإن تواريخ النساء الذاتية تطفو على السطح بشكل طبيعي. والانطلاق في الحديث يضمن تعرفهن على معاناتهن التي يغلفها الصمت في العادة. فالمجلس يقدم للنساء توضيحاً تاريخياً لمحنتهن كضحايا لا حول لها تعرضت للخيانات. ومن خلال رواية قصص الصدمات والمحن التاريخية، وصدماتهن ومحنهن الذاتية، يستطعن إقامة علاقات بين ثقافتهن الدينية وحياتهن.

obeikandl.com

وبالنسبة للنساء اللواتي قبلن الأدوار التقليدية لبنات جنسهن، فإن الحفلة تقدم لهن فرصة نادرة وثمينة للتعبير عن أنفسهن والاضطلاع بالقيادة خارج البيت، وبالنسبة لكثير من النساء يقدم المجلس واحدة من بضع مناسبات للالتقاء وتبادل الحديث مع نساء أخريات في مجال جماعي. كما أن الحرية التي تقدمها هذه الحفلة هي هدية مهمة من الأمل والشفاء لكثير من هؤلاء النساء، فهن دونها منعزلات في مجتمع أجنبي غريب.

الروايات العلاجية

لقد قام علماء النفس والمؤرخون منذ زمن بعيد بتحليل القصص الشخصية للناجين من المحن والصدمات؛ كي يفهموا كيف يمكن إعطاء معنى لتجارب الإبادة والتدمير (هيرمان 1992). وفي مقابلاتي مع النساء العراقيات الشيعيات، وجدت أمثلة عديدة من طرق النجاة والبقاء. فعندما كانوا يتحدثون، نساء ورجالاً، عن قصص حياتهم كان الكثيرون منهم متحفظين في مشاعرهم وتعابيرهم، وكأنه لم يكن لديهم شيء يخبروننا به.

فلم تنفجر النساء بالبكاء أبداً عندما كن يخبرنني بقصصهن. فلم تكن رواية قصصهن نابعة من الإشفاق على الذات. وكنّ يرين أن البكاء غير لائق في أثناء سرد قصصهن. فكن يوفرن الدموع للقصص الجماعية المحفوظة عن الحسين وأسرته، إذ كانت النساء يتعرفن في مأساته على مآسيهن الذاتية (ليلى أبو لغد 1985). فقد ذكر أبو حمزة الثمالي أن الإمام جعفراً الصادق قال ذات مرة: «إن بكاء الرجال وحزنهم شيء كريه يستحق التأنيب، إلا البكاء والحزن على الحسين بن علي. فهو وحده الذي يجلب الجزاء»!!. فالبكاء من أجل آل البيت مشروع (لديهم) لأنه ليس ذا طبيعة شخصية. وعند العثور على قصة تشبه استشهاد الحسين وملحمة حزن زينب، تجد النساء العزاء بمعرفتهن أنهن لسن وحدهن.

إن مثل هذه اللقاءات مع التاريخ المقدس عن طريق قصة كربلاء العنيفة الحزينة تتيح للمشاركات إظهار الولاء والتضامن مع النبي وآل بيته، ومن ثَمَّ مع الجماعة الشيعية عموماً ـ فهذا بالنسبة لهن هو «الإسلام الحقيقي» ـ فالمشاركات يتغيرن؛

obeikandl.com

لأن استحضار الحزن عن طريق تمثيله بحضور الأخريات الحزينات أيضاً له تأثير علاجي. وبالرغم من أنني كنت مراقبة فقط، فإن من المهم ملاحظة أنني لم أكن منفصلة عن تجربة المجلس بأي حال من الأحوال. بل اخترت المشاركة فيها. كانت أمي قد توفيت في شهر شباط / فبراير عام 2000. وفي مجلس عام 2001 شعرت بتفاعل خاص بيني وبين المشاركات. فعشت تجربة تقاسم ألمي من خلال تذكر ألم الأخريات. ذلك أن تجربة الاستماع إلى المراثي البليغة التي تصف ألم ابنة فقدت أباها أو أخت فقدت أخاها جعلتني أتواصل مع أحزاني وأبكي. فكان للتجربة أثر علاجي.

وفي سياق القصص التي جمعتها، كانت رواية تبدو بسيطة لمعركة في الحرب الإيرانية العراقية يمكن أن تتحول فجأة إلى قصة موت حفيد النبي في كربلاء. فعند وصف المصاعب التي أدت إلى انتفاضة عام 1991 تقوم الرواية بتحويل القصة إلى تكريم تاريخي لانتفاضة شيعية حدثت في القرن الثاني عشر الميلادي. ولقد كانت النساء اللواتي قابلتهن عارفات جداً بتاريخ التشيع. وبالرغم من أنهن لم يكن واسعات القراءة، بل كانت بعضهن أميات، فقد كان حفظهن لتاريخهن الديني سليماً؛ لأنه قد وصل إليهن تقليدياً عن طريق الرواية الشفهية.

وكانت كثيرات ممن قابلتهن يتحدثن بصيغة الجمع: «نحن» عند الإشارة إلى تجاربهن الذاتية. فعندما كانت إحداهن تحكي لي قصة حياتها كان يدهشني وضع قصتها ضمن سياق قصة عائلتها ومجتمعها بشكل محتوم. فكانت الرواية الشخصية في الواقع رواية اجتماعية في الوقت نفسه. وقد تكرر هذا النمط في الروايات الخمسين التي جمعتها. كانت كل امرأة لا تشير إلى نفسها بشكل فردي، بل كانت بشكل دائم تقريباً تترك ضمير المتكلم المفرد لتستعمل ضمير الجمع: «نحن» كي تخبرني بقصة شخصية لتاريخها الذاتي. فكانت كل واحدة منهن تشعر أنها مرتبطة بعائلة النبي المقدسة ارتباطاً فردياً، وارتباطاً جماعياً كعضو في الجماعة الشيعية. فكان شعورهن بالانتماء يعزز ارتباطهن بأسرهن عن طريق قرابة الدم، والانتماء إلى آل البيت عن طريق الإيمان الشيعي. غير أن التوضيح الجماعي المفصل لم يكن يمحو الصوت الفردي. وقد تحدثت النساء عن أدوارهن الخاصة في حربي الخليج، وأدوارهن الفاعلة في انتفاضة آذار/ مارس عام 1991. فكشفت قصصهن عن الحرب القصة

المخفية وغير المعروفة للنساء العربيات في زمن الحرب. فكان «سردهن لتاريخ الحرب» يناقض الشكل النمطي للنساء العربيات بكونه مدعوماً بالحقائق المادية الملموسة. وكانت رواياتهن الحربية تختلف عن «قصة الحرب» التي يكون فيها الرجال في الحرب والنساء في البيت حسب رأي مريم كوك وآليساندرو بورتيللي (كوك 1997، ص15؛ وبورتيللي 1991، ص27). فالنساء اللواتي قابلتهن كنّ في الجبهة، يسافرن إلى حدود إيران لتقديم الغذاء، ولإخفاء الجنود، وضمان سلامة أحبابهن. فموضوع قصصهن الحربية هو الشجاعة والعمل الفعلي(14).

وكانت قصصهن محبوكة مع ذكريات من أجزاء متباينة من حياتهن. فكن في منتصف قصة عن هولندة يقطعن السرد ليحكين رواية عن عراق ما قبل الحرب، ثم يقفزن إلى الأمام للحديث عن مخيم اللاجئين في رفحة، ثم يعدن إلى هولندة، ثم ينتقلن إلى الحديث عن الحسين وأسرته وآلامها التي هي آلامهن. فعندما يبدأن قصة تصف الرعب الناجم عن إعدام صدام لواحد من أولادهن، ينهين القصة بمشاعر زينب عند مقتل أخيها الحسين. وقد يمزجن ذكريات أناس آخرين مع ذكرياتهن، ولكنهن يتلقين تشجيعاً لإنشاء قصص لها معنى ومغزىً لدى المجموعة. فعندما تتحدث النساء عن حياتهن، يكون لديهن وعي بالظلم وأسبابه الجذرية. فقبل الحرب الإيرانية ــ العراقية، وفي أثنائها، وبعدها، كان حزب البعث يفرض رقابة مشددة على الشعب العراقي. ومن أجل حماية أنفسهم والاستمرار في التواصل، طوّر الشيعة لغة من الشفرات والرموز. وراحوا يستخدمون الأمثال والأشعار وأقوال أئمتهم، بل وآيات من القرآن للرد على الأسئلة، بحيث يجد الأشخاص الخارجيون هذه الردود غامضة مبهمة.

فتواريخ الشيعة ليست مبنية بالأعوام، بل بالحوادث، كما هي الحالة «في سنة تسميم المحاصيل» (كانت تلك السنة هي 1974، كما اكتشفت من خلال بحث خارجي). وبما أنني لم أكن أملك القدرة على فك رموز مسرد التسلسل التاريخي، فإن تلك القصص كانت روايتها خارج الزمن. فلم أكن أدرك أن الزمن قد مضى إلا عندما تتحدث النساء عن الانتقال إلى مواقع جديدة في سردهن. غير أنه يوجد مسرد للأماكن

– له أهمية مركزية في رواية القصص كلها ـ ذلك أن إثبات مشهد أحداث القصة مهم وله أولوية في روايتها. فأم أحمد وصفت كيف تم تدمير بيتها في آذار / مارس عام 1991: «كانت الشوارع مليئة بالناس؛ وكان الأطفال يصرخون؛ وكنا نركض.... وكانت السماء مليئة بالطائرات وتمطر نيراناً حمراء... وقد سقط البيت... وكان هناك دخان ـ ... دخان شديد السواد يملأ الهواء....وركضنا... وجئنا إلى هنا [إلى هولندة]؛ ونحن نعيش هنا.... فقد حفرت الطائرة ثقباً كبيراً في السقف ... فهربنا. ونحن نعيش هنا الآن.... كان بيتنا جيد التأثيث وفيه سجاد أحمر يملأ الغرف... وكانت النوافذ الكبيرة في غرفة الضيوف تسمح بدخول رائحة أشجار الفواكه. آه يا حسين، أقول لك: إن خسارتنا عظيمة!» وهكذا تتداخل ذكريات أم أحمد عن النيران والحرائق مع أوصافها لبيتها الهولندي، ثم تعود إلى بيتها في العراق، ومن ثم تعود إلى استحضار الحسين. وفي أثناء الحديث فإن تدفق ذكرياتها ينشئ شبكة تربطها بشيعيات أخريات عبر الزمان والمكان.

وكانت روايات هؤلاء النساء مملوءة أيضاً باتصالات غير كلامية. فقد كن يستخدمن أيديهن ورؤوسهن ليقلن بها ما لا تستطيع الكلمات إيصاله. وكانت هناك إشارة حادة بشكل خاص هي هزة رأس طفيفة كلما تحدثت إحدى النساء عن حادثة فيها ألم أو ظلم على وجه الخصوص. فكانت النساء يحركن رؤوسهن بشكل جماعي بطيء منظم من جانب إلى آخر، مع شعور موحد بالحداد. وهي حركة نبيلة وقورة لا تؤثر على باقي الجسم، وتكون في العادة مصحوبة بزفرات وتنهدات من الحنجرة تعبيراً عن التضامن الحزين.

وكثيراً ما كانت النساء يصمتن، فالصمت أداة مقاومة ناجمة عن الخشية، فلماذا يشركن غيرهن في قصصهن ما دمن لم يجربن شيئاً سوى الخيانات؟ فعندما كانت هؤلاء النساء يواجهن أسئلة صحفي، أو استبيانات من سلطات معالجة قضايا اللاجئين، أو فضولاً من شخص خارجي، كنّ يعتصمن بالصمت، وبذلك يستطعن السيطرة على تواريخهن. إذ إن الاضطهاد الذي تحملنه كان يزيد تعقيد شعورهن بالكتمان والحساسية.

obeikandi.com

وكانت الروايات مليئة بإشارات خفية ملغزة إلى أشياء تقليدية كلاسيكية كالشعر وأقوال الأئمة. فلم يكن السرد مباشراً صريحاً، وكان الناس يستخدمون هذه الأساليب للتعبير عن الوضع بدلاً من حكاية القصة ببساطة. ويمكن عدُّ طريقة النساء في الحديث شكلاً من أشكال الفن الشعبي. أما الحكم على كون الرواية «جيدة» فهو كثيراً ما يترك للجماعة نفسها. فالرواية «الجيدة» حسبما تحددها اللاجئات العراقيات هي الفاعلة في إنشاء حالة من المزاج العاطفي، وإيصال النظرة الأخلاقية المتعمقة، ونقل المستمعين إلى مستوى جديد من الفهم أو العمل. فبلاغة الراوي لها أهمية تعادل أهمية الرواية نفسها.

وقد وصفت حبيبة الحياة في العراق قبل صدام بأنها كانت «حياة طيبة، ولكن الدنيا كالحية، ناعمة وطرية، ولكن فيها سمّ قاتل. كانت تقتبس كلمات الإمام علي؛ كي تعطي معنى لنهاية سعادتها، لنهاية الحياة الطيبة في أرض طيبة. وبإعطاء مثل هذه الاقتباسات في سياق رواية قصص الحياة، كانت النساء يضفن حكمة جماعية لرواياتهن على شكل طبقة من الجمال والصدق.

obeikandl.com

خاتمة

كانت قصص النساء اللواتي قابلتهن في العراق مختلفة بشكل متميز عن تلك التي حدثت في رفحة وفي هولندة. فالقصص العراقية الموضوعة في سياق تعقيد أرض المعركة في الوطن تتميز بالاعتزاز والأسى، وفيها إحساس بالخسارة متغلغل في أي تاريخ حدث في العراق. غير أن قصص مخيم رفحة تتميز بلهجة تذكّر الخيانة. فالروايات عن رفحة فيها غضب أكثر من الحزن، وهي تكشف عن شعور النساء بالإحباط وحنينهن إلى وطنهن. فقد كن يشعرن بأن العراق مازال قريباً، بسبب المناخ، والثقافة الإسلامية، واللغة العربية المعروفة لديهن، والحدود القريبة. وهكذا فعند الحديث عن رفحة كانت النساء يذكرن الوطن بإلحاح عاجل وكانت كثيرات منهن يعتقدن أنهن سوف يعدن قريباً. أما في هولندة فإن لهجة الرواية كانت تتغير بشكل عنيف. فهناك إحساس عميق بالبحث الجماعي عن هوية. وكان موضوع الحرية الدينية يطرح بشكل متكرر. وكان من الواضح أن النساء فخورات بلغتهن وثقافتهن ودينهن. غير أن رأيهن في العراق قد تغيّر. فلم يعد العراق موجوداً عبر الحدود. ومع إعادة توطين النساء فإن قصصهن عن وطنهن كانت تتطور إلى حكايات حنين. فالعراق يبقى أصلهن، ولكنه لم يعد موطنهن.

ونظراً لأن النساء متدينات، فإن شهاداتهن تنشئ تضامناً شديداً بين أعضاء الجماعة الشيعية. فهي تساعد على تخليصهن من ماضٍ مدمر عنيف، وتحول الألم إلى حافز مشروع دينياً للازدهار والعمل لمتابعة المثل الاجتماعية العليا، حتى في المنفى. وتقديم الشهادة هو إعطاء القصة الثانوية غير الرسمية وتركيب تاريخ شعب ما كان يمكن سرده بطريقة أخرى.

obeikandi.com

obeikandl.com

الحواشي

(1) حول آلام آل البيت، انظر أميلي 1992، وعقاد 1997، وأرجوماند 1996.

(2) حول الحفاظ على الروابط مع الرموز الدينية، انظر مظفر 1999، ووائلي 1997، وفضل الله 1997.

(3) «الإمام» في العربية يعني «القائد». وهذا في المصطلح الإسلامي يشير إلى الشخص الذي يتقدم الآخرين في الصلوات. غير أن المصطلح يشير في الفقه الشيعي إلى كل واحد من الأئمة الاثني عشر.

(4) ظلت كربلاء منذ القرن العاشر الميلادي مركزاً دينياً ودراسياً. ففيها ضريح الحسين المغطى بالعاج، والذهب، والفضة، وغيرها من الأحجار الكريمة. وفي المزار ولداه (علي الأصغر والطفل عبدالله). وبالقرب من ضريح الحسين ضريح أخيه العباس. وإلى الشرق منه قبر ابن الإمام الحَسَن (الإمام الثاني). انظر الحيدري 1999، ص257 - 272.

(5) يزيد هو ابن معاوية، الحاكم الأموي الأول، الذي يعدّ من وجهة النظر الشيعية من السلالة المغتصبة. وقد وصل معاوية إلى الحكم بعد وفاة الإمام علي، الذي قاتل ضد معاوية في أثناء مرحلة حكمه القصيرة خليفة للمسلمين، وقد ورث يزيد الخلافة الأموية من أبيه.

(6) تعدّ النجف واحدة من أقدس المدن الشيعية في العراق. ففي وسطها مسجد الإمام علي ومزاره، الذي هو من أهم أماكن العبادة في العراق. وقبته مغطاة بالذهب. والرغبة النهائية عند الشيعة هي أن يدفنوا في هذا المزار وأن يحصلوا على حماية الإمام علي ورعايته يوم القيامة (الحيدري 1999، ص240 - 256).

(7) الكاظمية مرتبطة ببغداد جغرافياً وتاريخياً. فهي تقع إلى شمالها مباشرة وتتأثر بالتطورات التي تجري فيها. وفي وسط الكاظمية يقع مزار الإمامين

obeikandl.com

الجوادين، الإمام موسى الكاظم، وحفيده الإمام محمد الجواد (الحيدري 1999، ص268 - 274).

(8) سامراء في شمال بغداد، على ضفة دجلة الشرقية. والإمام علي الهادي (المتوفى عام 868م) مدفون هناك، مع ابنه الإمام الحسن العسكري (المتوفى عام 873م). وفي سامراء أيضاً نفق الغيبة الذي اختفى منه الإمام المهدي؛ والشيعة يتوقعون عودته؛ كي يعيد العدل إلى الأرض (الحيدري 1999، ص278).

(9) كان موقعي في هذه الطقوس هو موقع المؤرخ الشفهي المتعاطف، وقد استخدمت أسلوب المراقبة المشاركة الذي يستخدمه علماء الحضارة والأعراق الإنسانية للمراقبة والفهم. وقد عشت مع الشيعيات العراقيات في محاولة لمشاطرتهن الأرضية والتجربة المشتركة التي يعشنها. ومن أجل إنصاف قصصهن، فقد كنت محتاجة إلى الفهم الكامل لتعبير أشكالهن الشعرية.

(10) إن مهمة الملّاية هي استحضار الجو لاستعراض موعظة كربلاء من أجل التثقيف الديني لتنوير الجماعة. فالملّاية تتلو الأشعار من التاريخ الديني، وكذلك من المآسي الدينية (بأسلوب كثيراً ما يكون خيالياً قصصياً).

(11) يؤتى بالأطفال إلى المجلس؛ كي يجربوا معايشة الطقوس، فهم يتلقون تعليمهم عن الطقوس بالتجربة فقط، وليس بالتعاليم الشفهية.

(12) بما أن كل امرأة كانت تبكي، فقد وجدت عينيّ تدمعان أيضاً.

(13) انظر فضل الله 1997، ص46 - 49، والحيدري 1999، ص 35 - 44.

(14) حول موضوع قصص الحرب، انظر كوك 1998، الذي يعكس أصوات الكاتبات العربيات اللواتي كتبن عن الحرب الأهلية اللبنانية. انظر أيضاً كوك 1997، الذي يناقش الكاتبات العربيات وقصص حرب الخليج.